ابن تومرت في المغرب الأوسط من خلال كتاب أخبار المهدي للبيذق دراسة نقدية

د/ طارق بن زاوي
أستاذ محاضر أ
جامعة محمد بوضياف المسيلة

يعدّ محمد بن تومرت من الشخصيات التاريخية التي أسهمت في إحداث ثورة كبيرة في بلاد المغرب ، و قد كتب عنه القدماء مؤلفات كثيرة و أفرده المحدثون بدراسات علمية أكاديمية قيّمة تحلل و تنتقد شخصيته و أعماله ، و من أهم المؤلفين القدماء الذين عاصروا ابن تومرت و نقلوا لنا تفاصيل رحلته من المشرق إلى أقصى المغرب أبو بكر بن علي الصنهاجي المعروف بالبيذق في كتاب أخبار المهدي بن تومرت و بداية دولة الموحدين ، و روى المؤلف تفاصيل هذه الرحلة و منها مرور ابن تومرت بمدن المغرب الأوسط و ما جرى له فيها من وقائع ، و لعل أهمها لقاؤه بعبد المؤمن بن علي الكومي الذي يعتبر المؤسس الحقيقي لدولة الموحدين أكبر كيان سياسي عرفته بلاد المغرب خلال العصر الوسيط ، لذلك كان جدير بنا أن ندرس تفاصيل هذه الرحلة بحس نقدي قد نكشف من خلاله بعض الجوانب الخفية و الغامضة في شخصية ابن تومرت و حقيقة دعوته ، خاصة أنّ الكثير يصفه بالإمـام المصلح و العالم المتوهج و على رأسهم ابن خلدون و من تبعه في طرحه من المتأخرين و دافعوا عنه .

1 – نبذة عن حياة محمد بن تومرت :

أ– نسبه و نشأته :

قال ابن القطان : " هو محمد بن عبد الرحمان بن هود بن خالد بن تمام بن عدنان بن صفوان بن جابر بن عطاء بن رباح بن محمد بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، و قيل مثل ذلك سواء إلى عدنان فنسب هكذا عدنان بن صفوان بن جابر بن يحي بن عطاء بن رباح بن يسار بن العباس بن محمد بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، و قيل إنّه محمد بن عبد الله بن وجليد بن يامصل بن حمزة ابن عيسى بن إدريس بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب" [1] .

و قال البيذق : " ينقل من يوثق بنقله من قرابته و غيرهم محمد بن عبد الله بن وكليد بن يامصل بن حمزة بن عيسى بن عبيد الله بن إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن فاطمة بنت رسول الله ، هذا نسبه الصحيح ، و أما ما يروى في نسبه أنّه محمد بن عبد الله بن عبد الرحمان بن هود بن خالد بن تمام بن عدنان بن

[1] ابن القطان، **نظم الجمـــان لترتيب ما سلف من أخبار الزمـــان**، تحقيق : د/ محمود عي مكي، دار الغرب الاسلامي، بيروت، ص 87 .

صفوان بن جابر بن يحي بن رباح بن عطاء بن يسار بن العباس بن محمد بن الحسن بن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه و سلم ، فإن قرابته و أهل العناية بهذا الشأن لا يعرفونه ، و الله أعلم بذلك "[1].

أما ابن خلدون فقال في العبـــر: " أصله من بطون المصامدة يسمى أبوه عبد الله و تومرت ، و هو محمد بن عبد الله بن وجليد بن يامصل بن حمزة بن عيسى فيما ذكره ابن رشيق و حققه ابن القطان ، و ذكر بعض مؤرخي المغرب أنّه محمد بن تومرت بن نيطاوس بن ساولا بن سفيون بن الكلديس بن خالد ، و زعم كثير من المؤرخين أنّ نسبه في أهل البيت و أنّه محمد بن عبد الله بن عبد الرحمان بن هود بن خالد بن تمام بن عدنان بن سفيان بن صفوان بن جابر بن عطاء بن رباح بن محمد من ولد سليمان بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب أخي إدريس الأكبر الواقع نسب الكثير من بيته في المصامدة و أهل السوس ، فمن ولـــده كل طالبي بالســوس ، و قيل بل هو من قرابة إدريس اللاحقين به إلى المغرب و أنّ رباحا الذي في عمود هذا النسب إنّما هو ابن يسار العباس بن محمد بن الحسن ، و على الأمرين فإنّ نسبــه الطالبي وقــع في هرغــة من قبائــل المصامدة و رسخت عقوله فيهم و التحم بعصبيتهم فلبس جلدتهم و انتسب بنسبتهم و صار في عدادهم" [2].

أما ابن أبي زرع فقال : " أما المهدي فهو على ما ذكره المؤرخون لدولتهم محمد بن عبد الله المعروف بتومرت بن عبد الرحمان بن هود بن خالد بن تمام بن عدنان بن سفيان بن صفوان بن جابر بن يحي بن عطاء بن رباح بن يسـار بن عبـاس بن محمد بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، و قيل هو دعيّ في هذا النسب ذكره ابن مطروح القيسي في تاريخه ، و قال هو رجل من هرغة من قبائل مصمودة يعرف بمحمد بن تومرت الهرغي و قيل هو من كنفيسة" [3].

و حمل عليه الذهبي فقال : " محمد بن عبد الله بن تومرت المصمودي المدّعي أنّه علـــوي حسني و أنّه المهدي ، جرّه إقدامه و جراءته إلى حب الرئاسة و الظهور و ارتكاب المحضور و دعوى الكذب و الزور من أنّه حسني و هو هرغي بربري ، و أنّه إمام معصوم و هو بالإجماع مخصــوم"[4] ، و نقل ابن العماد في الشذرات أقوال الذهبي[5] .

---

[1] البيذق، **المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب**، تحقيق : عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور للطباعة و الوراقة، الرباط، 1390هـ/ 1971م، ص 12.

[2] ابن خلدون، **ديــوان المبتدأ و الخبر في تاريخ العرب و البربر و من عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت، 1421هـ/2000م .ج6، ص 301.

[3] ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب و تاريخ مدينة فاس**، دار المنصور للطباعة و الوراقة، الرباط، 1392هـ/ 1972 م، ص 172.

[4] الذهبي، **العبر في خبر من عبر**، تحقيق : أبو هاجر محمّد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1405هـ/1985م ، ج2، ص42 .

[5] ابن العماد، ، **شذرات الذّهب في أخبار من ذهب**، تحقيق : عبد القادر الأرناؤوط و محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الأولى، 1408هـ/1988م ، ج6، ص 117 .

و اختلفت المصادر في تاريخ ميلاده ، فقد ذكر ابن الخطيب أنّ محمد بن تومرت كان مولده سنة 486هـ/1092م [1] ، و قال الزركشي إنّه ولد سنة 491هـ/1097م[2] ، و ابن القنفذ قال إنّ مولده بهرغة سنة 471هـ/1078م [3] ، و حدّده ابن خلكان في الوفيات بيوم عاشوراء من سنة 485هـ/1092م [4] .

و فيما يتعلق بمكان مولده فقيل إنّه وُلد بالسوس بأقصى المغرب بضيعة تعرف بإيجلى أن وارغن[5] ، و قال ابن القطان إنّه ولد بموضع يسمى نومكران ، و هو موضع لا ماء فيه و إنّما يشرب أهله ماء المطر و هناك داره [6] ، و عن صفته فهو كما وصفه ابن القطان أنّه كان ربعة مفلج الثنايا قليل اللحية ، في خنصر إحدى يديه شبه الخاتم من اللحم ، حصور لا يأتي النساء[7] .

2 – رحلة محمد بن تومرت إلى المشرق :

ارتحل محمد بن تومرت إلى المشرق لطلب العلم على رأس المائة السادسة الهجرية ، و مرّ بالأندلس و دخل قرطبة و هي إذ ذاك دار علم ، ثمّ أجاز إلى مدينة الإسكندرية بمصر و حجّ و دخل العراق و لقي جملة من العلماء يومئذ و فحول النظار[8] ، و قيل إنّه التقى أبا حامد الغزالي (ت 505هـ/1111م)[9] .

3– بداية دعوة ابن تومرت .

انطلقت دعوة ابن تومرت من الإسكندرية حيث جرت له بها وقائع في معنى الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر أفضت إلى أن نفاه متوليها عن البلاد فركب البحر[10] ، فقد روى ابن القطان أنّ ابن تومرت رأى في المركب خمرا فأراقه فصاح عليه صاحب الخمر و سبّه ، فاجتمع أهل المركب إليه و رغبوه حتى سكت ، ثمّ حضر وقت الصلاة فأمرهم بالصلاة فلم يلتفتوا فشدّد عليهم فغضبوا و همّوا بإلقائه من المركب فهال عليهم البحر و كادوا يغرقون ، فقام إليهم رجل حاج فقال لهم تداركوا أنفسكم بإرضاء هذا الرجل لعلّ الله يفرّج عنكم ، فأقبلوا نحوه

---

[1] ابن الخطيب، **رقم الحلل في نظم الدول**، المطبعة التونسية، تونس، 1316هـ/1898م، ص 57 .

[2] الزركشي، ، **تاريخ الدولتين الموحدية و الحفصية**، تحقيق و تعليق : محمد ماضور، المكتبة العتيقة، تونس، الطبعة الثانية، 1385هـ/ 1966م، ص 4 .

[3] ابن القنفذ القسنطيني، **الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية**، تقديم و تحقيق : محمد الشاذلي النيفر و عبد المجيد التركي، الدار التونسية للنشر، تونس، 1378هـ/1968م، ص99 .

[4] ابن خلكان، ، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تحقيق : د/ احسان عباس، دار صادر، بيروت، دون تاريخ الطبع، ج5، ص53 .

[5] عبد الواحد المراكشي، **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، شرحه و اعتنى به : د/ صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، صيدا بيروت، الطبعة الأولى، 1426 هـ/ 2006 م، ص136 .

[6] ابن القطان، مصدر سابق، ص 90 .

[7] ابن القطان، مصدر سابق، ص 90 .

[8] ابن خلدون، مصدر سابق، ج6، ص 301 .

[9] نفسه، ج6، ص 302.

[10] عبد الواحد المراكشي، مصدر سابق، ص 137 .

متضرعين راغبين فقال لهم صلوا ، فتوضؤوا و صلّـوا فكشف الله ما بهم و جـرت السفينة بريح طيبة فصـاروا يطلبون منه الدعاء كل يوم[1] .

و أول دخول ابن تومرت إفريقية أنّه حل بطرابلس معنيا بمذهبه مظهرا النكير على علماء المغرب في عدولهم عنه ، آخذا نفسه بتدريس العلم و الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر ما استطاع حتى لقي بسبب ذلك أذيات[2] ، و مرّ بالمهدية فغيّر المنكر بها في مدة علي بن يحي بن تميم بن المعز الصنهاجي (ت 515هـ/1121م) صاحبها [3] ، و جلس في شارع ينظر المارة فلا يرى منكرا من آلات الملاهي أو أواني الخمر إلا نزل إليه و كسرها ، فتسامع الناس به في البلد ، فجاءوا إليه و قرؤوا عليه كتبا من أصول الدين ، و بلغ خبره الأمـير فاستدعاه مع جماعته من الفقهاء ، فلمّا رأى سمته و سمع كلامه أكرمه و أجلّه و سأله الدعاء ، فقال له : أصلحك الله لرعيتـك ، و لم يقم بعد ذلك بالمهدية إلا يسيرا[4].

ثمّ ارتحل إلى تونس، و يروي البيذق أنّ ابن تومرت حضر جنازة رفض الناس الصلاة عليها فقال لهم : لم لا تصلّون على هذه الجنازة ؟ فقالوا : هو يهودي و كان يصلي ، فقال لهم : أفيكم من يشهد له بالصلاة ؟ فقال الناس : نعم من كل جانب و مكان ، فقال لهم قد شهدتم له بالإيمان ، ثمّ أمر من يقيم الصفوف و صلى عليه ، فلما صلى دعا بالفقهاء و وبخهم و عرّفهم بالسنة و بيّن لهم الكتاب العزيز ، فقالوا له بعد أن عرفوا الحق : جهلنا يا فقيه ، فكانوا يأخذون العلم عنه أياما عديدة [5] .

4 – محمد بن تومرت في المغرب الأوسط برواية البيذق :

4–1 : التعريف بالبيذق : اسمه أبو بكر بن علي الصنهاجي و كنيته البيذق ، من المؤلفين الذين لم تتحدث عنهم المصادر التاريخية فلا نكاد نعثر على ترجمة له ، و لا يستبعد انتسابه إلى قبيلة إزناكن أو صنهاجة الأطلس الصغير القاطنين إلى اليوم في قسمه الشمالي الشرقي لأنّهم جيران أرغن أو هرغة قبيلة محمد بن تومرت ، أمّا عن تاريخ مولده و مكان نشأته فلا نعلم عن أي شيء تقريبا ماعدا بعض الإشارات في كتابه أخبار المهدي و هو مصدر المعلومات القليلة الواردة عن البيذق ، حيث يذكر أنّه رافق ابن تومرت في رحلته نحو المغرب ابتداء من تونس ، و أمّا عن تاريخ وفاته فيبدو أنّها كانت في بداية عهد أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن (558–580هـ/1163–1184م) ثاني خلفاء الدولة الموحدية ، و فيما يتعلق بمعنى كنيته البيذق فإنّها تعني الدليل في السفر و الماشي راجلا ، و هذان المعنيان هما المرجحان في تفسير هذه الكنية[6] .

---

[1] ابن القطان، مصدر سابق، ص 92 .

[2] ابن خلدون، مصدر سابق، ج6، ص302 .

[3] الزركشي، مصدر سابق، ص 4 .

[4] ابن خلكان، مصدر سابق، ج5، ص47 .

[5] البيذق، **أخبار المهدي بن تومرت و بداية دولة الموحدين**، دار المنصور للطباعة و الوراقة، الرباط، 1390هـ/1971م، ص11 .

[6] علي صدقي أزايكو، **نماذج من أسماء الأعلام الجغرافية و البشرية المغربية**، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 2004م، ص89 و ما بعدها .

2-4 : التعريف بكتاب أخبار المهدي بن تومرت و بداية دولة الموحدين : يعد كتاب أخبار المهدي بن تومرت و بداية دولة الموحدين من الكتب المصدرية المهمة التي تروي بداية شأن ابن تومرت و دولته ، و تكمن أهمية الكتاب الرئيسية في كون المؤلف كان معاصرا للحوادث و مرافقا للمهدي القائد الروحي و الزعيم السياسي لهذه الدولة ثم لخليفته عبد المؤمن بن علي ، أي أنّه لم يكن شاهد عيان على ما وقع فقط بل كان ملازما للقيادة التي كانت تخطط و تصنع التاريخ ، مؤمنا بعقيدتها مخلصا في الولاء لها ، كما أنّ الأخبار التي حواها الكتاب فيها من الدقة و التفصيل و السذاجة أيضا ما يكشف جوانب غامضة من نفسية ابن تومرت و سلوك أنصاره و حقيقة دعوته و يلقي أضواء على تنظيمات و حركية و مراحل الصراع العنيف الذي اقترن في المغرب برجوعه إليه من رحلته المشرقية و انتهاء بالقضاء على دولة المرابطين[1] .

و قد عثر على ما بقي من الكتاب ليفي بروفنسال في مكتبة ديرسان لورانثو بمدينة الاسكوريال الإسبانية سنة 1924م ، و اعتنى به و بما وجد من وثائق أخرى ترجع إلى العصر الموحدي فترجمها إلى الفرنسية و نشرها في كتاب واحد سنة 1928م ، و منذ ذلك الوقت بدأ المؤرخون المعاصرون ينقلون منه و يستدلون بنصوصه[2] .

أمّا عن محتوى الكتاب فيبدأ بذكر دخول ابن تومرت مدينة تونس و مروره بمدن المغرب الأوسط وصولا إلى أقصى المغرب ، و ذكر بيعة ابن تومرت و غزواته و وفاته ، ثمّ شرع في ذكر أخبار عبد المؤمن بن علي و حروبه إلى حين دخوله مراكش منتصرا و ما كان له من الوقائع بعد ذلك ، و ختم الكتاب بذكر الحصون التي بناها المرابطون (المجسمون حسب وصفه) بعد زوال دولتهم لمقاومة الموحدين .

3-4 : ابن تومرت في المغرب الأوسط (نص رواية البيذق) : خرج ابن تومرت من تونس مع ثلاثة من رفاقه هم يوسف الدكالي و الحاج عبد الرحمان و أبو بكر الصنهاجي البيذق متوجهين إلى قسنطينة ، و سأنقل نص الرواية كاملة دون تصرّف و هي كما يلي :

أ- دخول ابن تومرت مدينة قسنطينة : و ذلك أنّه لما دخل سيدنا المعصوم قسنطينة نزل بها عند الفقيه عبد الرحمان الميلي و يحي بن القاسم و عبد العزيز بن محمد ، و كان أميرها ابن سبع بن العزيز و كان قاضيها قاسم بن عبد الرحمان ، و كان الطلبة الذين بها يأتون المعصوم يقرأون عليه ، فلمّا كان في بعض الأيام سمع منادٍ و هو ينادي هذا جزاؤ الحلّال ، فقال المعصوم : ما هذا النداء ؟ فقالوا هذا حلّال يأخذ أموال الناس و يدخل عليهم ليقتلهم ، فقال ليس عليه سياط ، إنّما عليه القتل و لكن يجزيه ذلك الضرب ، فينما هم في المدينة إذ سمع مناديا ينادي هذا جزاء أهل السرقة ، فقال : يا قوم تركتم الشرع إنّما يجب عليه قطع اليد ، فقالوا : يا فقيه ما نصنع به ؟ فقال : إنّما هذا الضرب يقوم له مقام قطع اليد بجهلكم لأنّه لا يجوز جمع حدين في ذنب واحد ، ثم قال للسارق

---

[1] أبو بكر بن علي الصنهاجي البيذق، **أخبار المهدي بن تومرت و بداية دولة الموحدين**، تحقيق : عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور للطباعة، الرباط، 1971م، مقدمة المحقق، ص5 .

[2] نفسه، ص7 .

: تب ، فقال : يا فقيه أنا تائب لله تعالى بقلب صادق ، فتـاب على يد الإمام و علّمه شروط التوبة و بيّنها له[1] .

ب– دخول ابن تومرت مدينة بجاية :

وذلك ان المعصوم رضي الله عنه لما دخل بجايه نزل بمسجد الريحانة ، و كان ينهى الناس عن الأقراق الرزارية و عمائم الجاهلية و لباس الفتوحيات ، و يقول لا تتزيوا بزي النساء لأنّه حرام ، و كان يبيح الطيب للرجال و النساء ، و كان الفقهاء يأتونه و الذين منهم محرز و إبراهيم الزبدوي و إبراهيم بن محمد الميلي و يوسف ابن الجزيري الجراوي و عبد الرحمن بن الحاج الصنهاجي القاضي ، و ذلك في شهر رمضان المعظم ، فلما كان يوم الفطر اختلط الرجال و النساء في الشريعه ، فلما رآهم الإمام دخل فيهم بالعصا يمينا و شمالا حتى بدّدهم ، فلما رآه ابن العزيز يفعل ذلك قال له يا فقيه لا تأمر السوقة بالمعروف و هم لا يعرفونه ، فإني أخاف أن يأمروا فيك و تهلكهم ، لا يستوي حر كريم مع شيطان رجيم ، فسار الامام الى ملالة فلما رأوه قال له بنو العزيز : يا فقيه نريد ان نبني لك مسجدا هنا ، فقال لهم إن شئتم ، فبنوا له مسجدا و أقبل الطلبه يصلون إليه من كل مكان ، فلما كان في بعض الأيام دخـل المدينة حتى وصل بـاب البحر فأهـرق به الخمـر ، فقـال المؤمن تمار والكافر خمار ، فرمى[2] فيه اليد عبيد سبع و قالوا له : من أمرك بالحسبة ، فقال : الله و رسوله ، ثم رجع الى المسجد المذكور ، و هذا المسجد مبني عند دار يرزيجن بن عمر المكنى أبا محمد الذي سمّاه المعصوم رضي الله عنه عبد الواحد ، فكان الطلبه يقرأون العلم عليه ، فإذا فرغوا جلس بين الطرق تحت خروب العجوز ، و هو أبدا ينظر إلى الطريق و يحرّك شفتيه بالذكر ، و ذلك الموضع يعرف بخروب العجوز ، فبينما هو ذات يوم قاعد إذ سمعناه يقول : الحمد لله الذي أنجز وعده و نصر عبده و أنفذ أمره ، و أقبل نحو المسجد و صلى ركعتين ثمّ قال : الحمد لله على كل حال ، قد بلغ وقت النصر و ما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ، يصلكم غدا طالب طوبى لمن عرفه و ويل لمن أنكره ، فلما سمع الناس غدا يصلكم طالب حاروا في أمره ، و ذلك أنّ الحق تبارك أزعج أمير المؤمنين الخليفه عبد المؤمن بن علي رضي الله عنه من بلده نحو المشرق ، فجدّ حتى وصل بجاية هو و عمّه يعلو ، و ذلك أنّه لما خرج الخليفه أمـير المؤمنين مع عمّه رضي الله عنهما جـدّا حتى وصلا متيجة فنزل بها عند الفقيه أبي زكريا و أخيه صنّغ ، فأقاما بها أياما حتى إنّ الله أراه منامة للخليفه رضي الله عنه ، و ذلك أنّه رأى صحفة من طعام على ركبتيه يأكل الناس منها كافه ، فلما أصبح قال لعمّه : يا عمّ رأيت كذا و كذا ، فقال له : اكتم هذه الرؤيا ، و ارتحلا حتى وصلا لبني زلدوي فرأى المنامة بعينها إلا أنّ الصحفة على رأسه و الناس أجمع يأكلون منها ، فأعلم أيضا عمّـه ، فلما أصبح أقبـلا يجـدّان السـير حتى نـزلا بجاية و نزلا بها في مسجد الريحانة ، فلما صليا الصبح سمع النّاس يقولون : سيروا بنا نحو الفقيه ، فقال لهم الخليفة أمير المؤمنين رضي الله عنه : و من الفقيه ؟ قالوا له : السوسي هو عالم المشرق و المغرب و ما مثله إنسان ، فقال لعمّه

[1] البيذق، مصدر سابق، ص 12.

[2] نفسه، ص13 .

: يا عمّ سر بنا نحوه إن شاء الله ، و لما وصل الخليفة رضي الله عنه بجاية و جنّ عليه الليل[1] قرأ حزبه وصلى ورده في تلك الليله ، ثم نام فرأى الرؤيا بعينها إلا أنّ الناس يبايعونه ، فلما أفاق أعلم عمّه بها ، فقال له : اكتم هذا الأمر فإنّه رأت أمك و هي بك حامل كأنّ النّار تخرج منها و تحرق المشرق و المغرب و القبلة و الجوف ، فقال لها المعبّر بتلمسان : لابد لهذه المرأة من مولود يكون أمره يأخذ المشرق و المغرب و القبله و الجوف ، و لكن اكتم هذا الامر و لا تعرّف به إنسانا ، و كذلك قال لي أبوك علي و لقد رأيت في أمرك موعظة ، كنا نحصد الزرع و أمك بك حامل فجاءت للفدان و اضطجعت نائمه فأقبل بندان من نحل فنزلا على أمك ، فلما خلقت أنت أتت أمك الفدان فلقطت السنبل و تركتك نائما ، فنزل عليك النحل أكثر مما كان نزل على أمك و أنت في جوفها ، ثم قام النحل عنك و افترق فرقتين واحدة للمشرق و أخرى للمغرب ، فقال علي : الله اكبر ، هذا هو الذي قاله الفقيه بتلمسان ، فلما رجعنا الى من الفدان قال لأمك : احفظيه فإنّه لابد له من الأمر الذي ذكر الفقيه المفسر ، فكانوا ينتظرون منه حتى بلغ مبلغ الرجال و نشأ على الحفظ و القراءة ، وكان رضي الله عنه كثير الفهم يفهم الناس مسألة و يفهم هو عشرة ، فلما سمع رضي الله عنه مقالة عمّه قال له : يا عم اخرج مع الناس أرى هذا الفقيه السوسي و أقول له هذه المنامات و هذا الأمر و اسأله في أحوال الديانات و الواجبات ، فإني أسمع الناس يذكرون مغربات أقواله و صلاح دينه و فهمه للكتاب و السنة ، فقال له : سر إليه و أسرع لأنا على السفر[2] .

ج- باب نذكر فيه اتصال الخليفه بالامام المهدي رضي الله عنهما :

اعلم يا أخي أنّه لما جدّ السير نحو الإمام اجتمع مع الطلبة في طريقه فاصطحب معهم حتى بلغ باب المسجد ، فرفع المعصوم رضي الله عنهم رأسه فوافقه أمامه ، فقال له : ادخل يا شاب ، فدخل ، فأراد أن يقعد في جملة الناس فقال له الامام المهدي المعصوم رضي الله عنه : ادن يا شاب ، فلم يزل يدنو من الإمام و المعصوم يقرّبه حتى دنا منه ، فقال له المعصوم : ما اسمك يا فتى ؟ فقال : عبد المؤمن ، فقال له المعصوم : و أبوك علي ؟ فقال : نعم ، فتعجب الناس من ذلك ، فقال له : يا شاب من أين إقبالك ؟ فقال له : من نظر تلمسان من ساحل كومية ، فقال له المعصوم : من تاجرا أم لا ؟ فقال له : نعم ، فزاد الناس تعجبا ، فقال له المعصوم رضي الله تعالى عنه : أين تريد يا فتى ؟ فقال : يا سيدي نحو المشرق التمس فيه العلم ، فقال له المعصوم رضي الله عنه : العلم الذي تريد اقتباسه بالمشرق قد وجدته بالمغرب ، فلما انصرف الناس من القراءة أراد الخليفة أن ينصرف ، فقال له المعصوم رضي الله عنه : تبيت عندنا يا شاب ، فقال له : نعم يا فقيه ، فبات عندنا فلما جنّ الليل ناداني المعصوم : يا أبا بكر ادفع لي الكتاب الذي في الوعاء الأحمر ، فدفعته له و قال لي اسرج لنا سراجا ، فكان يقرأه على الخليفة من بعده و أنا يومئذ ماسك السراج اسمعه يقول : لا يقوم الأمر الذي فيه حياه الدين الا بعبد المؤمن بن علي سراج الموحدين ، فبكى الخليفة عند سماع هذا القول و قال :

---

[1] البيذق، مصدر سابق، ص14 .

[2] البيذق، مصدر سابق ، ص15 .

يا فقيه ما كنت في شيء من هذا ، إنما أنا رجل أريد ما يطهرني من ذنوبي ، فقال له المعصوم : إنما [1] تطهيرك من ذنوبك صلاح الدنيا على يديك ، ثم دفع له الكتاب و قال : طوبى لأقوام كنت مقدمهم و ويل لقوم خالفوك أولهم و آخرهم ، الله يبارك لك في عمرك و يهديك و يعصمك مما تخاف و تحذر، ثم قال لي المعصوم رضي الله عنه : يا أبا بكر ناد الصبيان للوِرد يقومون يأخذون حزبهم ، فلما أقبلوا ناداهم فقال لهم : إنما الله اله واحد و الرسول حق و المهدي حق ، فاقرأوا حديث أبي داوود تعرف الامر ، و عليكم بالسمع و الطاعه لربكم و السلام ، فأخذوا وردهم و قرأوا حزبهم ، فلما أصبح أقبل يعلو عم الخليفه أمير المؤمنين رضي الله عنه و قال له :يا عبد المؤمن حبستنا حتى تقلع المراكب ، فقال له المعصوم رضي الله عنه : العلم الذي يريد اقتباسه بالمشرق قد أتاه بالمغرب ، فاترك الأمر على مراد الله و الإمام .

و كان يقرأ على الإمام المعصوم رضي الله عنه و كان أفهم الطلبة ، و كان إذا أراد النوم يقول له المعصوم رضي الله عنه : كيف ينام من تنتظره الدنيا ؟ فلم يزل على تلك الحال أشهر ، فلما كان يوم من الأيام أقبل رجلان يريدان المشرق اسم احدهما عبد الله بن عبد العزيز و الآخر عبد الصمد بن عبد الحليم ، فقال لهما الإمام رضي الله عنه : من أين أقبلتما أيها الرجلان ؟ قالا : من بلاد المغرب ، و لما وصلا بقيا باهتين فقال لهما الإمام المعصوم رضي الله عنه : ما لكما لا تتكلمان ؟ فقالا له : نحن ما نفهم العربيه بلسانهما و قالا له يا فقيه : وصلنـــا من درن من تينملل ، فسألهمـا في قولهما و دعـا لهما و سارا ، فلما أمسى المساء قال لنا : عوّلوا على السير نحو المغرب إن شاء الله و لا حول ولا قوه الا بالله[2] .

د– باب نذكر فيه الخروج من ملالة و سير المعصوم نحو الغرب :

اعلم أنّه لما أراد الإمام السير نحو المغرب دعا براحل والدة يرزيجن بن عمر المكنى بعبد الواحد الشرقي و قال لها : يا راحل تتركين ابنك عبد الواحد يسير معنا ؟ فقالت له : يا فقيه هو معك إذا أراد أن يسير يسير ، فقال لها : يا أمي أسير معهم ، فقال لها المعصوم له في هذا خيرة ، فقالت له : يسير حيثما حملته ، فقال لها : يا راحل اتركي لنا الدابه تحمل الاسفاط ، فدفعت لنا فلوة شهباء بيضاء البطن ، فلما وصلت قال لي المعصوم : يا أبا بكر خذها ، فأخذتها فكنت أخدمها ، فخرجنا حتى وصلنا متيجة ، فلما نزلنا بها قال لي عبد المؤمن بن علي الخليفه أمير المؤمنين : أتعرف دواء للمشق ، فقلت له : يا مولاي و الله لا أعرف له دواء ، فلما أصبح سرنا فكان الخليفه يتأخر و كان الإمام المعصوم يقول : له سر يا عبد المؤمن ، فقلت للمعصوم : إنّه ممشوق ، فقال المعصوم : يا عبد الواحد ركِّب أخاك و امش ، فلما سمعه هاب ، فرد المعصوم رأسه اليه و قال له : اركب ، فركبه فأطرق عبد الواحد برأسه إلى الأرض ، فقال له المعصوم : يا عبد الواحد طيّب نفسك ، فلقد يجازيك عليها بالقصور المشيدة و الجواري المزينة و الخيول المسومة ، و كان مبيتنا في متيجة عند جبارة بن محمد

[1] نفسه ، ص16 .

[2] نفسه، ص17 .

و أعطاه الإمام خط يده ، و عند الفقيه أبي زكريا ، ثم خرجنا من عنده نحو الأخماس ، فلما دخلنا الأخماس وجد فيه المعصوم مسجدا مهدوما فأمر ببنائه فبني[1] .

ثم منها نحو كساس و مرمور فوجد بها مسجدا معطلا فأمر بعمارته فعمر ، ثم منها نحو مليانة ثم منها نحو وانشريس ، فنزلنا بالحضرة فوجدنا عبد الله بن محسن الونشريسي المكنى بالبشير ، ثم منها نحو تينملت متاع بني يزناسن ، فأمر المعصوم ببناء مسجد و هم بنو يزناتن متاع تنس ، ثم قمنا منها و بتنا بشلف عند الفقيه أبي الربيع ، و كتب له الإمام خط يده و أكرمونا غايه الإكرام ، ثم منها نحو البطحاء ، و لما أشرفنا على البطحاء قطع بنا إنسان يقال له يوسف بن عبد العزيز و قال : سلام عليكم ورحمه الله و بركاته ، سألتكم بالله العظيم إلا سرتم معي فإن قلبي طاب عليكم ، فقال له المعصوم : سيروا معه لا تفسدوا عليه خاطره ، فلما نزلنا عنده قال : سألتكم بالله العظيم لا تفسدوا علينا سيرتنا ادفعوا لنا من يختار ضيافتكم من الغنم ، فقال المعصوم لعبد المؤمن : سر معه ، و قال لي امضِ أنت معه ، فسرت معه حتى وصلنا الغنم فاختار كبشا عسليا أقرن ، فلما كان من الغد قال بسم الله العظيم اختاروا كبشكم ، فقال الإمام المعصوم سيروا معه فأتينا نحو الغنم فأخذنا كبشا أكحل العينين فأتيته به فذبحه ، فلما كان اليوم الثالث سرت معه و اخترت كبشا عسليا مثل الأول ، و قال الإمام المعصوم في اليوم الثالث : هل رأيتم أكرم من هذا الرجل ؟ يا شيخ ما اسمك و ما اسم أبيك ؟ فأعلمه ، فكتب له المعصوم خط يده ، و قال أعطني جلدا فدفع له جلدا من مزود فأخذه المعصوم و جعل له حرزا و قال له : يا شيخ أمسك هذا عندك ، فإن مت يكون عند بنيك فإنّه خير لك و لعقبك حتى يصل إلى هذا الموضع ملك و عسكر فادفع البراءة من يديك ليد الملك و لا تعطيها أحدا غيره ، فقال له : نعم ، فارتحلنا فلم نزل نجد السير حتى وصلنا تلمسان بالعافيه[2] .

هـ- باب نذكر فيه دخول المعصوم تلمسان :

اعلم يا أخي أنّه لما دخلنا تلمسان نزلنا باكدير عند ابن صاحب الصلاة ، و لما دخل المعصوم تلمسان وجد بها عروسا تزف لبعلها و هي راكبه على سرج و اللهو و المنكر أمامها ، فكسر الدفوف و اللهو و غيَّر المنكر و أنزلها عن السرج ، فالتزم الطلبة المذاكرة للإمام المهدي الذين منهم أبو العباس الشريف و محرز بن يونس التونسي و علي بن صاحب الصلاة و ابن جبل و عثمان بن صاحب الصـــلاة و يحي بن يافطين الكـــزولي و عبد الرحمن الورتندي و علي بن سليمان الكومي و عبد الرحمن ومحمد ابن عبد الرحمن المديوني ، فرأوا ما لا يطيقون ، فلما كان يوم من الأيام طلع المعصوم بين الصخرتين و نظر يمينا ويسارا فقال : ما اسم هذه المياه ؟ و ما اسم هذا الوطاء ؟ و ما اسم هذا الموضع ؟ فعرفوه أنّ اسمه كذا و كذا ، فقال لهم : بين أظهركم هنا طالب ينزل بمحلته هناك في المياه و يسمع ضجيجها من هذا الموضع ، ثم رجع الى المدينه و قال نسير غدا ان شاء الله على بركه رسول الله[3] .

---

[1] البيذق، مصدر سابق، ص18 .

[2] نفسه، ص19 .

[3] البيذق، مصدر سابق، ص20 .

5- نقـد روايــة البيذق : تعتبر رواية البيذق من أهم و أقدم الروايات التاريخية التي تروي رحلة عودة ابن تومرت من المشرق في طريقه إلى أقصى المغرب حيث موطنه حاملا معه مشروعه السياسي الكبير المثمتل في تأسيس دولة كبيرة تحكم العالم الإسلامي باستغلال عقيدة المهدي المشهورة بين المسلمين ، و تكمن أهمية هذه الرواية أنّ راويها كان معاصرا و ملازما لابن تومرت و رفيقه في هذه الرحلة ، كما أنّها تضمنت أخبارا مهمة جدا تكشف جوانب مهمة في شخصية محمد بن تومرت و تسهم في تتبع تطلعات الرجـل و حقيقة دعوته ، كما تبين بوضوح عمل الدعاية الموحدية في إظهار محمد بن تومرت و تابعه عبد المؤمن بن علي بأنهما أهل للتعظيم و التبجيل الأمر الذي يؤهلما لكسب الشرعية الدينية و السياسية لقيادة الأمة .

و من المهم جدا معرفة تاريخ تأليف كتاب أخبار المهدي بن تومرت و بداية دولـة الموحدين ، و ذلك لإدراك مدى دقة الحوادث الواردة فيه ، فالبيذق لم يذكر تاريخا لبداية تأليف كتابه و لم يذكر متى أتمّه ، و الظاهر أنّه دوّنه ما بين سنتي 550-555هـ (1155-1159م)[1] ، و هذه المرحلة تمثل ذروة حروب عبد المؤمن بن علي في بلاد المغرب و قمة انتصاراته ، فقد استكمل فيها السيطرة على المنطقة كلها و حرّر سواحلها من سيطرة النورمان و حقق ما عجز عنه غيره ، و سيأتي بيان الكثير من الأمور التي أوردها البيذق في ما كتب تشير في شكل نبوءات و منامات إلى هذا الذي وقع من نصر و فتح ، و اعتمد البيذق في تدوينه هذه الرحلة على ذاكرته ، إذ لم يكتف بذكر الأمكنة العديدة التي مرّ بها ابن تومرت و رفاقه بل سرد أيضا الكثير من أسماء الطلبة و الشيوخ و الأشخاص الذين أقبلوا على " المهدي" في كل مدينة للأخذ من علمه أو مناظرته [2].

و من المآخذ البارزة على رواية البيذق أنّها تكاد تخلو من ذكر الأيام و الشهور و السنوات ، فلا نجد تأريخـا لأي حـدث لا سيما ما نحن بصـدد ذكـره من رحلـة محمد بن تومرت عائـدا إلى بلـده و مروره بمدن المغرب الأوسط .

و البيذق من الأشخاص المعظمين لابن تومرت و لا يتردد في الإيمان بعصمته فلا يذكره غالبا إلا مقترنا بها مع الترضي عنه ، و هذه من أعظم ما نُقم على مؤرخي الدولة الموحدية ، و هي تدّل على تعصب كبير لإمامهم ، و هي في نظر ابن خلدون المنافح عن ابن تومرت الفلتة التي حُفظت عنه فقد قال في تاريخه : " و لم يحفظ عنه فلتة في البدعة إلا ما كان من وفاقه الإمامية من الشيعة في القول بالإمام المعصوم "[3] .

و ابن تومرت هو نفسه من ادّعى العصمة و لم ينسبها له أحد ، ثمّ جاء أتباعه و صدّقوه فيما ادّعاه ، يقول ابن تومرت إنّ الإمام لابد أن يكون معصوما من الفتن و من الجور و من البدع و من الكذب و العمل بالجهل و

---

[1] المنور عواد، الكتابة **التاريخية عند البيذق من خلال كتابه أخبار المهدي بن تومرت و بداية دولة الموحدين**، مجلة الحوار المتوسطي، تصدر عن مخبر البحوث و الدراسات الإستشراقية في حضارة المغرب الإسلامي، جامعة الجيلالي اليابس، سيدي بلعباس، المجلد 11، عدد1، مارس2011م، ص75 .

[2] نفسه، نفس الصفحة .

[3] ابن خلدون، مصدر سابق، ج6، ص 305.

من الباطل[1] ، و اعتبر ابن القطان عصمة ابن تومرت كرامة من كراماته التي خصه الله بها[2] ، و قول ابن تومرت في العصمة مشابه إلى حد كبير قول الشيعة الإمامية الذين يفسرون العصمة كما قـرره المجلسي (ت 1111هـ/1699م) في قولـه : " اعلم أن الإمامية اتفقـوا على عصمة الأئمة من الذنوب صغيرها و كبيرها فلا يقع منهم ذنب أصلا لا عمدا و لا نسيانا و لا لخطأ في التأويل و لا للإسهاء من الله سبحانه"[3] .

و يرى علماء العقيدة من أهل السنة و الجماعة أنّ العصمة خاصة بالأنبياء و الرسل دون غيرهم من البشر ، و هي من شروط النبوة و الرسالة و ليست من شروط الإمامة ، و إنّما يشترط في الأخيرة عدالة ظاهرة ، فمتى أقام في الظاهر على موافقة الشريعة كان أمره في الإمامة منتظما ، و متى زاغ عن ذلك كانت الأمة عيارا عليه في العدول به من خطئه إلى صواب أو في العدول عنه إلى غيره[4] .

و قد حاول البيذق جاهدا أن يبيّن لنا أنّ ابن تومرت كان يرفع خلال رحلته شعار الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر ، فلا يفارقه هذا الركن الركين من أركان دعوته في حلّه و ترحاله ، فالرجل لا يمر بمدينة إلا و يجد فيها المنكرات و يعمها الجهل ، و لا يجد من بينهم عالما أو محتسبا يقوم بالأمر و النهي ، و لمن عرف أحاديث ظهور المهدي الكثيرة يدرك ما يرمي إليه البيذق و أمثاله من إشاعة هذه الأخبار ، و هي إشارة واضحة لتبرير دعوى المهدوية التي يسعى ابن تومرت لادّعائها في ما هو قادم ، فلا بد قبل ظهوره من ترسيخ فكرة فشو المنكرات و انتشار الظلم و الجور في الأرض[5] ، و هذا جـزء مهم جدا في الدعاية الموحدية التي عملت على نشرها بين العوام قبل و أثناء و بعد ادّعاء ابن تومرت مهدويته في المغرب الأقصى[6] .

و قد لجأ ابن تومرت و أتباعه منذ بداية دعوتهم إلى توظيف كل الوسائل المشروعة و غير المشروعة لإنجاح مشروعهم ، و كان التوظيف السياسي للرؤى و المنامات إحدى أهم الوسائل التي استخدمها الموحدون لخداع أتباعهم و إقناعهم بمشروعية نهجهم ، و يظهر هذا الأمـر جليا في كتاب البيذق ، فقد ركّز على رؤى رآها عبد المؤمن بن علي أو أقرب الناس إليه كأمّه ، و معروف تعلّق العوام بهذه المنامات و السـؤال عنهـا و عن تفسيرهـا و البحث عن تأويلهـا ، و قد رواهـا البيذق بالتفصيل ، و الهـدف من وراء ذلك يتمثل في إضفـاء الشرعية على ما قام به عبد المؤمن من ثورة على المرابطين و رفعه إلى مراتب القديسين بإظهاره شخصا ملهما محدَّثا ، بشّرت به أمّه و هو في بطنها و رأى البشرى و هو شاب حدث ، فكان لازما أن تتحقق هذه الرؤى على أرض الواقع و

---

[1] ابن تومرت، **أعز مـا يطلب**، تحقيق و تقديم: د/ عبد الغني أبو العزم، مؤسسة الغني للنشر، الرباط، ص 297 .

[2] ابن القطان، مصدر سابق، ص 91 و ما بعدها .

[3] المجلسي، بحار الأنوار، ج25، ص 211 . نقلا عن: د/ ناصر بن عبد الله بن علي القفاري، **أصول مذهب الشيعة الإمامية الإثنى عشرية**، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، الطبعة الثانية، 1415هـ/ 1994م، ج2، ص 775.

[4] البغدادي، ، **أصـــول الدين**، تحقيق : أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية ، بيروت، الطبعة الأولى، 1422هـ/2002م ص 307 .

[5] و من هذه الأحاديث الصحيحة ما رواه عبد الله بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "لو لم يبقَ منَ الدُّنيا إلَّا يومٌ لطوَّلَ اللَّهُ ذلِكَ اليومَ حتَّى يَبعثَ فيهِ رجلًا منِّي – أو من أَهْلِ بيتي – يواطئُ اسمُهُ اسمي واسمُ أبيهِ اسمُ أبي يملأُ الأرضَ قِسطًا و عدلًا كما ملئت ظُلمًا و جَورًا " . (محمد ناصر الدين الألباني، صحيح سنن أبي داود، مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الأولى، 1998م، حديث رقم 4282، ج3، ص20.)

[6] ذكر ابن القطان أن بيعة الإمام المهدي كانت إما في سنة 514هـ/1120م على قول ، و إما في سنة 515هـ/1121م على قول آخر (ابن القطان، مصدر سابق، ص 123) .

أن يكون لهذا الفتى شأن ، و لم يلبث أن تمكن عبد المؤمن من الإنتصار الحاسم على المرابطين و أقام لنفسه ملكا لم تعهده بلاد المغرب من قبل خلال التاريخ الوسيط ، و البيذق في هذا كله أحكم ذكر تفاصيل هذه الرؤى مبيّنا مآلها في الواقع ، و لكن لماذا أعرض عن ذكـر رؤى لابن تومرت المعصوم الزعيم الروحي و القائد الفعلي للموحدين في بداية أمرهم ؟ أليس المهدي المعصوم أولى بأن تكون له رؤى تبشره بالملك و النصر ؟

لا أظن أنّ الإجابة عن هذا السؤال من الصعوبة بمكان ، فإنّ محمد بن تومرت الذي ادّعى المهدوية و هلك قبل أن تقوم لدولته قائمة من الصعب نسبة رؤى إليه تبشر بانتصاره و علو سلطانه و قيام دولته ، فكان من الأذكى و الأنسب و الأجدر جعل الرؤى من نصيب الخليفة الذي أقام الدولة و بسط السطان و فتح المدائن و وحدّ البلاد ، و يزيد هذا الأمر تأكيدا أنّ البيذق ألف كتابه بعد قيام دولة الموحدين و في الوقت الذي بلغت فيه قمة مجدها كما سبق ذكره ، فلا يعجزه أن يكتب التاريخ برواية المنتصر و لا يضرّه أن يؤلف روايات و يضع أخبارا ينسبها لسيّده تسهم في تبرير شرعيته .

و لعل أهمّ ما حدث في رحلة ابن تومرت و مروره بمدن المغرب الأوسط لقاؤه بعبد المؤمن بن علي في ملالـة قـرب مدينة بجايـة و ما جرى فيها من أمـور يظهر فيها بوضـوح الدجل و الشعوذة و الكهانة التي قد يراها كثير من جهلة العوام فضلا عن بعض من ينتسب إلى العلم سببا في تعظيم صاحبها ، و هي في مجملها من أعظم المنكر الذي يناقض جوهـر دعـوة التوحيـد التي يزعـم ابن تومرت أنّه يدعـو إليها و جعلها ركن دعوته الأول ، و الشيء اللافت للإنتباه أنّ هذه الروايات لم تصدر من أعداء الدعوة الموحدية بل صدرت من أكبر أنصارها و أدعيائها ، و هي تدل بما لا يدع مجالا للشك عن خلل كبير في الإعتقاد و جهل مريب يمس أصحاب هذه الدعوة منذ بدايتها و بعد ظهورها و يستمر للأسف إلى يومنا هذا فيمن لم يمعن نظره في ما نقله البيذق و غيره من مؤرخي الدعوة الموحدية .

و قيل في تعريف الكاهن أنّه الذي يخبر عن الكوائن في مستقبل الزمان و يدّعى معرفـة الأسـرار و مطالعة علم الغيب [1] ، و قال ابن حجر في الفتح : " الكهانة ادّعاء علم الغيب كالإخبار بما سيقع في الأرض مع الإستناد إلى سبب ، و الأصل فيه استراق الجني السمع من كلام الملائكة فيلقيه في أذن الكاهن ، و الكاهن لفظ يطلق على العرّاف و الذي يضرب بالحصى ، و قيل الكاهن القاضي بالغيب ، و قيل إنّ العرب تسمّي كل من أذن بشيء قبل وقوعه كاهنا ، و قال الخطابي الكهنة قوم لهم أذهان حادة و نفوس شريرة و طباع نارية ، فألفتهم الشياطين لما بينهم من التناسب في هذه الأمور و مساعدتهم بكل ما تصل إليه قدرتهم "[2] .

و حكم الكهانة و العرافة معلوم عند أهل العلم فابن خلدون المنافح عن ابن تومرت في تاريخه يقول في مقدمته ما نصه : "فقد بان لك بطلان هذه الصناعة من طريق الشرع و ضعف مداركها مع ذلك من طريق العقل

---

[1] الحسن بن مسعود البغوي، **شـرح السنـة**، تحقيق : شعيب الأرناؤوط، المكتب الاسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، 1403هـ /1983م، ج12، ص182 .

[2] ابن حجر، **فتح الباري شرح صحيح الإمام البخاري**، رقّم أحاديثه و كتبه و أبوابه : محمد فؤاد عبد الباقي، المكتبة السلفية، القاهرة، 1390هـ/ 1970م ، ج10، ص216 .

مع مالها من المضار في العمران الإنساني بما تبعث من عقائد العوام من الفساد إذا اتفق الصدق في أحكامهـــا و ليس كذلك فيقع في رد الأشياء إلى غير خالقها ، ثم ما ينشأ عنها كثيرا في الدول من توقع القواطع و ما يبعث على ذلك التوقع من تطاول الأعداء و المتربصين بالدولـة إلى الفتك و الثورة ، و قد شاهدنا من ذلك كثيرا ، فينبغي أن تحظر هذه الصناعة على جميع أهل العمران لما ينشأ عنها من المضار في الدين و الدول"[1] .

و يكفّر المالكية المنجم ، قال ابن رشد في البيان و التحصيل : " إذا كان المنجم يزعم أنّ النجوم و اختلافها في الطلوع و الغروب هي الفاعلة بذلك كلّه و كان مستترا بذلك فحضرته البيّنة قتل بلا استتابه لأنّه كافر زنديق ، و إن كان معلنـــا بذلك غير مستتر به يظهره و يحاج عليه استتيب ، فإن تاب و إلا قتل كالمرتد سواء ، "[2] ، هذا حكم المنجم الذي يدّعي علم الغيب ، و أما من يقصده من عامة المسلمين فيقول فيهم ابن رشد أيضا : " و لا يحل لمسلم أن يصدَّقه في شيء مما يقول ..... فلا ينبغي أن يغتر أحد بذلك و يجعله على صدقه دليلا فيما يقول .... فلا يعلم الأمور الغائبة على وجوهها و تفاصيلها إلا علاّم الغيوب أو من أطلع عليها علام الغيوب من الأنبياء ليكون ذلك دليل على صحة نبوته"[3] .

و باكورة هذه الكهانات و الدجل التي ذكرها البيذق أنّ ابن تومرت أعلم أصحابه بملالة و هو قاعد في موضع يعرف بخروب العجوز قائلا : " الحمد لله الذي أنجز وعـده و نصر عبده و أنفذ أمره ، و أقبل نحو المسجد و صلى ركعتين ثمّ قال : الحمـد لله على كل حال ، قد بلـغ وقت النصر و ما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ، يصلكم غدا طالب طوبى لمن عرفه و ويل لمن أنكره" ، فلما سمع الناس غدا يصلكم طالب حاروا في أمره ، و تواصل الرواية الخبر عن كهانة ابن تومرت و إطلاّعه على الغيب أنّه ميّز عبد المؤمن بن علي بمجرّد دخوله عليه و قرّبه إليه ، و عرف اسم أبيه دون أن يذكر له عبد المؤمن ذلك ، و عرف أيضا أنّ ابن علي من تاجرا تحديدا و ليس من تلمسان قبل أن يخبره ابن علي بذلك أيضا ، و الناس في ذلك متعجبون ممّا يشاهدون و يسمعون .

و لم تقف الأمور عند هذا الحد فلابن تومرت كتاب في وعاء أحمر طلب من البيذق إحضاره فقرأ منه على عبد المؤمن و بشّره بالخلافة و لقّبه بسراج الموحدين ، و أوعد المخالفين له بالويل أولهم و آخرهم ، و من تمّ قرّر عبد المؤمن بن علي ملازمة ابن تومرت و عدم الرحيل إلى المشرق ، و لم يتحدث البيذق عن هذا الكتاب و لم يذكر لنا عنوانه أو محتواه ، و جاء في مصادر أخرى أنّه كتاب الجفر ، فقد نقل ابن خلكان أنّه رأى في كتاب المغرب عن سيرة ملوك المغرب أنّ محمد بن تومرت كان قد اطلّع من علوم أهل البيت على كتاب يسمى الجفر ، و أنّه رأى فيه صفة رجل يظهر بالمغرب الأقصى بمكان يسمى السوس و هو من ذرية رسول الله صلى الله عليه و سلم يدعو إلى الله يكون مقامه و مدفنه بموضع من المغرب يسمى باسم هجاء حروفه (ت ى ن م ل) ، و رأى

---

[1] ابن خلدون، مصدر سابق، ص 717 .

[2] أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد، **البيـان و التحصيـل**، تحقيق : أحمد الجبالي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، 1408هـ/ 1988م، ج17، ص 407.

[3] نفسه، ج17، ص 408 .

فيه أيضا أنّ استقامة ذلك الأمر و استيلاءه و تمكنه يكون على يد رجل من أصحابه هجاء اسمه (ع ب د م و م ن) و يجاوز وقته المائة الخامسة ، فأوقع الله في نفسه أنّه القائم بأول الأمر و أنّ أوانه قد أزف[1] .

و حسب هذه الرواية فإنّ ابن تومرت يعتبر من القلائل الذين اطلّعوا على كتاب الجفر هذا ، فما هو هذا الكتاب ؟

إنّ الجفر من كتب الشيعة الروافض ، فهو عندهم عبارة عن العلم الإجمالي بلوح القضاء و القدر ، و المحتوى على ما كان و ما يكون كليا و جزئيا ، و ادعت طائفة أنّ الجفر علم يتوارثه أهل البيت و من ينتمي إليهم ، و يؤخذ من المشايخ الكاملين و كانوا يكتمون كل الكتمان ، و لا يقف على هذا الكتاب إلا المهدي المنتظر[2] .

و يقول البغدادي : " إنّه من أعجب الأشياء أنّ الخطابية من فرق الشيعة زعمت أنّ جعفر الصادق قد أودعهم جلدا فيه علم كل ما يحتاجون إليه من الغيب و سمّوا ذلك الجلد جفرا ، و زعموا أنّه لا يقرأ ما فيه إلا من كان منهم " [3] .

فابن تومرت قد وقف على كتاب وضعه غلاة الشيعة حسب رواية ابن خلكان و هو كتاب لا يعرفه أحد و لم يره احد و لم يقرأه أحد من المسلمين ، بل قيل إنّه لم ثقل عليه المرض و أيقن بالموت دعا عبد المؤمن بن علي و أعطاه كتاب الجفر الذي صار إليه من قبل الإمام أبي حامد الغزالي[4] .

و بناء على تقدّم ذكره فإنّ البيذق كان من الأوائل الذين روجوا لأسطورة هذا الكتاب الذي يضعه ابن تومرت في وعاء أحمر و إن لم يصرّح به ، و كل ما رُوي عن هذا الكتاب سواء كان جفرا أو غيره فإنّه لا يخرج عن كونه من كتب الحدثان و الكهانة السياسية ، و من صدّق هذه الأسطورة أو روّج لها فهو في ذلك عيال على رواية البيذق ، و هذا ما يؤكد أنّ ابن تومرت لم يتورع في استعمال جميع الأساليب في محاولته السيطرة على عقول العوام و إقناعهم بشخصه و الإيمان بعصمته و مهديته المزعومة .

و بعد هذه الوقفات النقدية لرواية البيذق و المتعلقة بحديثه عن رحلة عودة ابن تومرت إلى بلده و مروره ببلاد المغرب الأوسط يمكن إلى نصل إلى النتائج التالية :

- يعتبر كتاب البيذق أخبار المهدي بن تومرت و بداية دولة الموحدين من أهمّ المصادر التاريخية المعاصرة لبداية تاريخ الموحدين في بلاد المغرب .

- البيذق من أخلص أتباع ابن تومرت و من الأوائل المروجين لشخصية ابن تومرت و ما تميزت به من خوارق – حسب ادّعاءات أتباعه – في محاولة ظاهرة لإضفاء شيء من القداسة على هذه الشخصية التاريخية المثيرة للجدل .

---

[1] ابن خلكان، مصدر سابق ، ج5، ص 47.

[2] أبو حامد المقدسي، **رسالة في الرد على الرافضة**، تحقيق : عبد الوهاب خليل الرحمان، الدار السلفية، بومباي، الطبعة الأولى، 1403هـ/ 1983م، مقدمة المحقق، ص 83 .

[3] البغدادي، **الفرق بين الفرق**، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا بيروت، 1416هـ/1995م، ص 252 .

[4] ابن أبي زرع، مصدر سابق، ص 180.

– أثبت البيذق تعلقه و تعصبه الشديد لابن تومرت خاصة في إيمانه بعصمة سيّده .

– لم تخل رواية البيذق من ذكر الكثير من التفاصيل المهمة في رحلة ابن تومرت ، لكن في المقابل أهملت ذكر زمان هذه التفاصيل .

– مرور ابن تومرت بالمغرب الأوسط يعتبر من أهم محطات التخطيط للثورة ضد المرابطين و فيها كان اللقاء بين الزعيم الروحي للموحدين ابن تومرت و المؤسس الحقيقي للدولة عبد المؤمن بن علي .

– أكدت رواية البيذق ممارسة الدعاية الموحدية جميع الوسائل المشروعة و غير المشروعة أثناء رحلة العودة إلى أقصى المغرب و ذلك لإقناع الناس بمشروعية الثورة ضد المرابطين و التسليم بصدق دعوى المهدوية التي ادّعاها ابن تومرت من خلال ما يلي :

1 – تصوير بلاد المغرب على أنّها بلاد فشت فيها المناكير و المعاصي و انعدم فيها الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر .

2 – انتشار الجهل و عدم القيام بواجب الحسبة في جميع المدن التي مرّ بها ابن تومرت .

3 – تأكيد البيذق على ممارسة ابن تومرت الكهانة و الدجل .

4 – إظهار نوايا ابن تومرت الأولى في ما هو مقدم عليه من ادّعاء المهدوية .

5 – استعمال الرؤى و المنامات في التسويق لقداسة ابن تومرت و عبد المؤمن بن علي في محاولة لتبرير شرعية تورثهما على المرابطين في مرحلة أولى ثم إعلان خلافة الثاني في مرحلة ثانية .